عريان نصيف (١)

فى مفارقة غريبة وعندما تطوعت فى الحرس الوطنى واكتشفوا أننى شيوعى، اتهمونى بالعمل على تفجير المعسكر، ساقونى إلى السجن الحربى، عذبونى تعذيبا شديد القسوة، وسألنى ضابط اسمك إيه قلت عريان فقال خلاص خليك عريان، وخلعوا ملابسى تماما فى زنزانة مليئة بالماء البارد.
(عريان نصيف فى حواره معى)

الأبوان كانا يعانيان من مرارة فقد أطفالهما، يموتون وهم رضعا الواحد تلو الآخر أربعة ذكور وثلاث إناث، يموتون دون سبب واضح ودون مرض معلوم، عجز الطب ولم يبق أمام الأبوين سوى الرضوخ للأوهام باتقاء الحسد، وعندما جاءهما طفل ثامن أسمياه عريان، وفوق هذا ألبساه ثوبا من الخيش لعله يثير شفقة الجيران وليس حسدهم.

الأسرة كانت من الأثرياء، ويتداول الأبناء كيف أن الجد كان يمتلك عزبة كبيرة أسميت على اسمه «عزبة أبوموسى» والأب كان نصيبه من الميراث أربعون فدانا، إيرادها يكفى ويزيد، ولهذا أراح نفسه من أى إرهاق، فاكتفى من التعليم بالسنة الرابعة الابتدائية، ومن السياسة بتأييد أى حكومة، ومن المواقف والآراء ما تنشره الأهرام فهى بالطبع تفهم أكثر من الجميع، والطفل عريان ما أن شب عن الطوق حتى خلع الخيش وتمتع بحياة شبه مرفهة، لكن ثمة شىء كان يوخزه دائما لعله ضمير يقظ، أو أفكار مسيحية ترسخ بعضها فى وجدانه.. وتؤرقه أسئلة مثل لماذا يعيش الفقراء فى هذا البؤس بينما أحبهم المسيح وعطف عليهم؟ ولماذا هم جائعون ونحن نتمتع بكل شىء، أمه حاولت إقناعه بأن «دى حكمة ربنا» ولم يقتنع، والأب حاول إقناعه بأنه لا يظلم أحدا، وأتى له بأحد المستأجرين ليقول له «يا سى عريان إحنا عايشين فى خيركم، والفتى العنيد لا يقتنع ولا يكف عن تأنيب والديه فيأخذه الأب إلى أبونا متى راعى كنيسة بسيون الذى يقول له «يا ابنى لا تعترض على حكمة ربنا» لم يقتنع عريان وقرر أن يرد على هذا التمييز

بطريقته الخاصة، فالفقراء لا يأكلون اللحم ولهذا هو لن يأكل لحما، ولا يتعلمون فى المدرسة ولهذا هو لن يذهب إلى المدرسة ولا يلبسون ملابس جديدة فى العيد ولهذا رفض ملابس العيد الجديدة، الأب خبط كفا بكف «يعنى يا رب الولد اللى يعيش يتجنن. لكن عريان لم يكن مجنونا كان فقط رافضا للخضوع لمبدأ التمييز بين من يملكون ومن لا يملكون، وبعد محايلات من أبونا متى اقتنع بالذهاب إلى المدرسة، وإن ظل رافضا للأطعمة التى يتميز بها الأغنياء، لكن الحيرة تظل تغلف كل تصرفاته بحثا عن مخرج، وأخيرا فى يوم من أيام فبراير ١٩٥١ التقط من عند بائع الصحف جريدة تحمل عنوانا صارخا اسمها «الاشتراكية» ويقول «وجدت فيها الإجابات فالنضال ضد الفقر عمل سياسى جماعى وليس عملا فرديا، باختصار وجدت نفسى، كانت الكلمات ساخنة بل شديدة السخونة ومحشوة بطلقات سريعة مثل العدالة - الحرية - الثورة. حقوق الشعب، وأسرعت لأنضم إلى الحزب الاشتراكى»، واتسعت دائرة قراءاته لصحف الصاخبة فى هذه الفترة الساخنة بالحماس الثورى والوطنى.. مثل الجمهور المصرى - الكاتب - الملايين - روز اليوسف - الواجب ثم إلى كتابات سلامة موسى وترجمات لروايات مكسيم جودكى وبالسليقة، وربما بسبب الضمير المسيحى الحساس اكتشف أن فكرة اسمها الماركسية هى الأكثر قربا لتحقيق العدل، وبدأ يقرأ ليلتقط كلمات وعبارات أعتقد أنها هى الماركسية، وتعرف عليه عدد من الطلاب فى طنطا الثانوية الحديثة واعتقدوا أنه ممثل للشيوعيين لكنه كان شيوعيا من منازلهم.

وفى المدرسة تزامل مع حسين عبدالرازق وعندما قامت ثورة يوليو أصدرا معا مجلة أسمياها العهد الجديد لكنه تحمس ضد قادة الثورة لأنهم استبقوا ١٤ معتقلا من الشيوعيين، وتوقفت المجلة، وتنتهى مرحلة الدراسة الثانوية وإلى الإسكندرية وفى كلية الحقوق كان الضوء الماركسى المبهر فى انتظاره فهناك فاروق أبوعيسى الذى أصبح فيما بعد قياديا فى الحزب الشيوعى السودانى وأصبح رئيسا لاتحاد المحامين العرب، وهناك أيضا عبدالفتاح موافى الذى كان آتيا من المنصورة محملا بتراث نضال شيوعى عريق وفى ٥ أكتوبر ١٩٥٣ دعى إلى أول اجتماع شيوعى لم يزل يذكر هذا اليوم ويعتبره عيد ميلاده الحقيقى» تدفقت انهار من الضوء المبهر.. وأصبح عريان عضوا فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى فى فترة كانت حدتو فيها مقبلة على معركة ضارية مع حركة الجيش، ويخوض عريان معارك حدتو بالإسكندرية فى فترة بالغة الصعوبة حيث عصف

الأمن بعدد كبير من قيادات التنظيم بالمدينة فى قضية شهيرة، ويواصل عريان حتى عام ١٩٥٦ وتكون الأيام المجيدة، ومن الإسكندرية يعلن عبدالناصر تأميم قناة السويس وتنفجر كل الطاقات تأييدا ويكون العدوان الثلاثى، وتقرر لجنة كليو (الاسم السرى لجنة محافظة الإسكندرية وهو مشتق من كلمة كليوباترا) الدعوة إلى إقامة معسكر للتدريب على المقاومة الشعبية وتكوين جيش شعبى للاشتراك فى مواجهة العدوان، واختارت اللجنة ثلاثة رفاق للقيام بهذه المهمة، سعد الساعى وحمدى مرسى وعريان، وبهذا التكليف أصبح عريان شخصا آخر إتقد حماسا وثورية وتدفقت كل طاقاته لإنجاح هذه المهمة.

الثلاثة ذهبوا لمقابلة قائد المنطقة الشمالية اللواء عاطف نصار، السيد اللواء تحمس لحماسهم أو ربما تظاهر بالحماس لأنه كان يرتب أمرا آخر، وأقيم معسكر التدريب فى أرض سبورتنج، الجميع كانوا متحمسين هو كان الأكثر حماسا وتفانيا فى التدريب بما منحه الترقية إلى رتبة وكيل إمباشى فازداد حماسا، كانوا يستعدون بحماس للسفر إلى الجبهة لمواجهة العدوان، ويزداد حماسهم إذ تأتيهم أنباء رفاق تسللوا إلى بورسعيد حيث المواجهة الفعلية، وأنباء أخرى عن رفيقات ذهبن إلى خط المواجهة فى أبوصوير، اجتمعت المجموعة الحزبية وقررت أن التدريب الذى حصلوا عليه كاف تماما وأنهم مستعدون للسفر فورا، ولأنه كان الأعلى رتبة «وكيل إمباشى» كلفوه بأن يتصل بقيادة المعسكر ليعرض عليها طلبهم، لكن ثمة أشياء لم تكن معلومة لهم، فاللواء عاطف نصار الذى احتضنهم وشجعهم اتهم بالتحضير لانقلاب عسكرى ومن ثم وضع كل من تحمس لهم فى دائرة الشك ولا بأس من البحث عن أدلة اتهام إضافية باتهامه بالتعاون مع الشيوعيين فى تدبير الانقلاب، ذهب عريان ليعرض طلب اللجنة الحزبية فى الوقت غير الملائم تماما، وفوجئ بانفجار الضابط فى وجهه، وبالقبض عليه وعزله عن رتبته وإرساله إلى السجن الحربى مصحوبا بلفافة كبيرة عرف بعد ذلك أنها متفجرات وأن التهمة التى أعدت له هى أنه كان يستعد لتفجير المعسكر.. وتبدأ مرحلة جديدة وإلى لقاء.